131568

الدكتور أحمد الطويلي

تاريخ مدينة تونس

الثقافي والحضاري

من الفتح إلى أواخر القرن التاسع عشر

الكتاب : تاريخ مدينة تونس الثقافي والحضاري
المؤلف : الدكتور أحمد الطويلي

الطبعة : الأولى ـ 2002

ر د م ك : 6 - 77 - 824 - 9973 : ISBN

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

Türkiye Diyanet Vakfı
İslâm Araştırmaları Merkezi
Kütüphanesi
Dem. No: 131568
Tas. No:

تم طبع وإنجاز هذا الكتاب في :
الشركة التونسية للنشر وتنمية فنون الرسم
SOTEPA GRAPHIC
1، نهج محمد رشيد رضا - 1002 تونس
الهاتف : 933 790 71 ـ 380 894 71 / الفاكس : 313 790 71

صورة الغلاف : باب البحر أواخر القرن التاسع عشر

الخطوط الكبرى لتاريخ تونس(1)

ـ عهد الفتح والولاة : من سنة 27 هـ إلى سنة 184 هـ : كانت المقاومة للفتح العربي شديدة لاعتزاز البربر بقوميتهم. قاوموا الزحف العربي واللغة العربية والفكر العربي في آن واحد. ولم تعرّب إفريقية بسهولة، وقد قام التعليم بدور عظيم في تعريبها.

ـ عهد الدولة الأغلبية : من سنة 184 هـ إلى سنة 296 هـ : اتّفق إبراهيم بن الأغلب مع هارون الرشيد على أن تكون الإمارة في ذريته فتولّى الحكم، وتأسّست دولة عربيّة، مستقلّة عن الخلافة الإسلامية ببغداد.

ـ عهد الدولة العبيديّة الفاطميّة : من سنة 296 هـ إلى سنة 362 هـ : قامت هذه الدّولة خاصة على سواعد قبيلة كتامة البربريّة.

ـ دولة بني زيري الصنهاجيين : من سنة 362 هـ إلى سنة 555 هـ : أوّل من تولّى فيها الإمارة بلكين بن زيري، أقام دولة بربريّة في عالم عربي إسلامي، لكن هذه الدّولة اعتمدت اللّغة العربيّة، ودعّمت الأدب العربي والعلوم.

ـ عهد الدّولة الموحّديّة : من سنة 555 هـ إلى سنة 626 هـ : جاءت جيوش عبد المؤمن بن علي من المغرب وفتحت المهديّة وأخرجت منها النرمان.

ـ عهد الدولة الحفصيّة : من سنة 626 هـ إلى سنة 981 هـ : وقد اختار أبو زكرياء الحفصي تونس عاصمة له بدلا من القيروان(2).

ـ العهد التركي : من سنة 981 هـ إلى سنة 1117 هـ.

ـ العهد الحسيني : من سنة 1117 هـ إلى سنة 1375 هـ.

ـ العهد الجمهوري : من سنة 1375 هـ إلى اليوم.

---

(1) انظر : خلاصة تاريخ تونس، لحسن حسني عبد الوهاب، تونس 1968.
(2) انظر أطروحتنا : الحياة الأدبيّة بتونس في العهد الحفصي : المقدمة.

تونس في عهد الولاة وفي الرحلات

بدأت تونس منذ الفتح العربي لإفريقية تبرز قاعدة استراتيجية مهمّة، ومدينة شرعت تتوجه إليها الانظار. لقد أمر الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان حسان بن نعمان بحفر قناة من بحر رادس تصل إلى تونس لتتمكّن السّفن من الوصول إليها. وقد غيّر حسان هكذا الوجه الطّبيعي لتونس بوصلها بالبحر. إذ أنّ لهذه القناة تأثيرات طبيعيّة وتاريخية وعمرانية مهمّة. وقد كان مكان هذه القناة مزارع وبساتين، وبهذه الكيفية عوّضت تونس كمرفإ قرطاج، وبدأت البناءات تتكاثر فيها، وما لبث اسم تونس أن انتشر في جميع البلدان، فهو اسم يوحي بالخير والبركة، وصارت تونس تقرن بالقيروان، فكان بعض خلفاء بني العباس يسأل الوافدين من إفريقية عن حالها، ويروى عن الخليفة العباسي المنصور أنّه كان يسأل من يفد عليه ببغداد من أهل إفريقية هذا السؤال: كيف حالُ إحدى القيروانين؟ يعني بذلك مدينة تونس إذ أقام بها فترة من الزّمن(1) قبل أن يلي الخلافة.

وأوّل ما بدأ به حسّانُ بن النعمان بتونس هو بناؤه لمسجد الزّيتونة المعمور، وكان مسجدا بسيطا وقد استعملت في بنائه المواد البنائية من قرطاج، ومنذ هذا العهد صارت تونس تعرف أيضا بترشيش وهي كلمة فينيقية قرطاجية تعني الميناء، والملاحظ أنّه توجد مواني عديدة تسمّى أيضا بهذه التّسمية مثل طرسوس في الشام وطرطوشة في الاندلس. وعندما جاء العربُ لإفريقية أحبُّوا كلمة تونس وهو اسمها في القديم خاصة في العهد الروماني، وهذه اللفظة محمّلة بمعاني الايناس والبهجة والفرح وحسن الاستقبال، وهي معان قد

(1) ورقات : ج 1، ص 390، 292. وللمزيد من الاطلاع على الحضارة التونسيّة في عهود الولاة والاغالبة والفاطميين وبني زيري انظر كتابنا : «تاريخ القيروان الثقافي والحضاري»، تونس 2001.

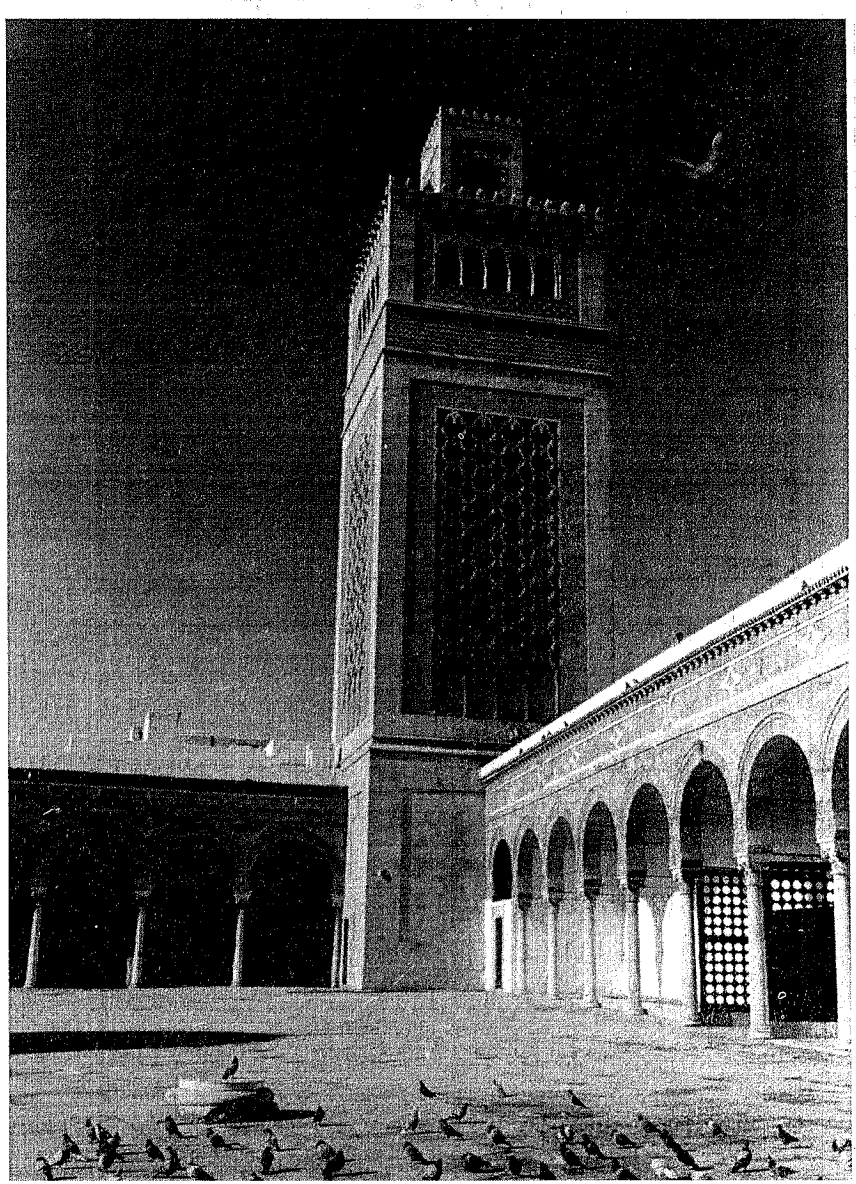

منارةجامع الزيتونة وجانب من الصحن

وجدها العربُ مجسّمة في هذه المدينة التي تأسُر النّفوس بجمالها وخضرتها وموقعها الذي تحيط به الهضاب من عدد من جهاته فتزيدُها حُسْنا إلى حُسن.

وبعد حسّان بن النعمان، بنى عبيد الله بن الحبحاب في مدّة ولايته على إفريقية جامع الزيتونة من جديد كما جدّد ايضا دار الصناعة بها، وكان عبيد الله بن الحبحاب كاتابليغا حافظا لأيّام العرب ووقائعها وأخبارها، ذا بلاغة في لسانه وقلمه، وكان يقول الشعر(2)، وكانت ولايته تمتدُّ من مصر إلى الأندلس. فكان أوّلا كاتبا ثم ارتقى إلى منصب الولاية وكان يقول: «إنّما كنتُ كُويتبا، ثم صِرتُ كاتبا، ثم صرتُ أميرا، ثم أنا اليوم أمير كبير والحمد لله». وقد عُيّن بافريقية في شهر ربيع الأول سنة 116 هـ.

وقد وصف البكري جامع الزّيتونة بقوله: «جامع مدينة تونس رفيع البناء، مطلٌّ على البحر، ينظر الجالس فيه إلى جميع جَوَاريه (أي سفنِه)»(ج2 ص 697).

وقد ضاهى الجامع جامع القيروان في إشعاعه العلمي منذ أواخر القرن الأول للهجرة، وذلك باساتذته، وكان مركزًا لتعليم العربية والعلوم الدّينية، ولم يخبُ عطاؤه العلمي قط عبر العصور، وقد تألّق خاصة في العهد الحفصي وتميّز بإقبال النّاس عليه من جميع البلدان للتكوّن فيه ولملاقاة علمائه.

وممّن اقام بتونس في عهد الولاة أسدُ بن الفُرات بن سنان (ت 213)، تكوّن بها وتلقّى دروسا وسنّهُ اذّاك سبع سنوات، وخرج منها وعمره ست عشرة سنة، إذ قال: «دخلتُ مع أبي القيروان في جيش ابن الأشعث فأقمنا بها خمسَ سنين، ثم دخلتُ مع أبي إلى تونس فأقمْتُ بها نحو من تسع سنين. فلمّا أنهيتُ ثماني عشرة سنة عُلّمتُ القرآن ببجردة»(3).

(2) الحلة السيراء لابن الآبار : ج 2، ص 337، تحقيق حسين مؤنس، القاهرة 1963.
(3) نفسه : ج 2، ص 381.

فقد كانت تونس في عهد الولاة فالأغالبة فالعُبَيْديين ثم الصّنهاجِين فعهّد بني خراسان وخاصّة في العهد الحفْصي مركزًا لتعليم القراءاتِ والفقه والنحو والأدب والحديث والتاريخ والفلسفة اذ انتصب فيها أعلامٌ في كلّ فنّ من الفُنون وفي كلّ علم من العلوم وهم ممّن اشتهر في العالم العربي والإسلامي.

فمنذُ زمن الفتح كان يعيش بتونس عدد كبير من الفاتحين كانوا شعراء وأدباء نذكر منهم الحسن الكندي المتوفّى سنة 150 هـ، وتمّام بن تميم التميمي وكان عاملا على تونس سنة 183 هـ.

وكانت تونس في عهد الولاة قسما إداريًا من الأقسام الإدارية بإفريقية كما نظّمها حسانُ بن النُّعمان إذ يقول عنه ابنُ عذاري في "البيان المغرب" إنّه دوّن في إفريقية الدّواوين. وكان يوجد بتونس أميرٌ ينظر في أحوال الفاتحين وأعمالهم كما كان يوجد وَال مكلّف بالخراج وينظر أيضا في مصالح السُّكان العامة يرجع نظرهُما إلى أمير إفريقية بالقيروان. كما كان بتونس قاضٍ له النّظرُ المطلقُ في القضايا، كان يتحصّلُ على رزقه غالبًا من بيت المال. أمّا عنِ الحياة الاقتصادية بمدينة تونس زمن الوُلاة فيلاحظ أحد المؤلفين التّونسيين(4) أنّ تونس ورثت من قرطاج صنائعها وصنّاعها وفلاّحيها في عهد الفتح منهم من أسلم ومنهم من بقي على دينه.

ويقول هذا المؤلّف : "إنّ من محاسن ملكة العرب استعمال كل ما يجدونه في الأرض التي يتغلّبون عليها من مأكل ومشربٍ وملبسٍ فتبقى صنائعُ وحرفُ تلك البلاد على ما كانت عليه قبل فتحهم من الرّواج. وينضمُّ إلى ذلك بعضُ الصّنائع التي تنقُلُها من بلد إلى بلد لا تّساعَ مالكهم، وذلك من أنجع أسباب التحام الأُمم بهم» (5).

وقد ازدهرت الصناعاتُ بتونس وحفلت الحياةُ الاقتصادية بها بنشاط

(4) انظر : «عنوان الأريب» لمحمد النيفر تذييل علي النيفر، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1996.
(5) نفسه : ج 1، ص 65.

سجّله لنا المؤرّخون وأصحابُ الرّحلات يقول البكري عن تونس : «وبها أسواق كثيرة، ومتاجر عجيبة» ويقولُ: «وتُصنَعُ بتونس آنيةٌ للماء منَ الخزَف تُعرَف بالرّيحيّة شديدةُ البياض في نهاية الرقة تكادُ تشفّ ليس يُعلم لها نظير في جميع الأقطار وعامة الأمصار».

أمّا عن النشاط الفلاحي في القُرون الهجريّة الأولى فيقول البكري وقد حرّر كتابه حوالي سنة 460هـ : «ومدينة تونس من أشرف مدائن إفريقية وأطيبها ثمرا وأنفسها فاكهة. فمن ذلك اللّوز الفريك يَفرك بعضه بعضا من رقة قشْره، ويُحتُّ باليَد، وأكثره حبتان في كلّ لوزة مع طيبِ المضغةِ وعظمِ الحبّة».

وينوّه البكري خاصة بثمرة الرّمان المتّصفة بـ«صدق الحلاوة وكثرة المائية،والأترج الطيبّ الطّعم، الذكيّ الرائحة، البديع المنظر، والتين الأسود رقيق القشْر، كثير العسل لا يكاد يوجد له بزرٌ، والسّفرجل المتناهي كبرا وطيبا وعطرا، والعنّاب الرّفيع». وغير ذلك من البقول.

ويقول البكري:

«وبها من أجناسِ الحوتِ الذي لا يكون مثله في غيرها ما لا يُحْصى كثرة، أجناسٌ تجري في البحر.. في كلّ شهر... يجري فيه جنسٌ منه... وهم (اي السكان) من تجدّدها في لذّة موصولة، ونعمةٍ غير مملولة، وكلّ جنس منها يُصبّرُ ويبقى السنين صحيح الجُرم، طيبَ الطعم».

ويذكرُ ابن حوقل من جهته في كتابه «صورة الأرض» ما كانت تصدره تونس من بضائع في القرنين الهجريين الأوّلين وقد كتب تأليفه في أوائل القرن الرّابع الهجري، إذْ بدأ رحلته عبر البلدان سنة 331هـ.

فقد بدأ بذكر الجواري البربريات اللاّتي كانت لهُنَّ مكانة رفيعة خاصة في قُصُورِ الخلفاء ثم نصّ على ما كان يجلب منهن إلى المشرق وعدّد بعضَ البضائع مِثل العنبر والحرير وأكسية الصّوف الرفيعة إلى جبايب الصوف وما يُعملُ منه، ولهم الخيلُ النفيسة من البراذين والبغال الفره والإبل والغنم وما لديهم من ماشية البقر «فأمّا أسعارُهم على تنائي مدنهم وديارهم فعلى غاية

الرخص في الأطعمة والأغذية والأشربة واللحمان والأدهان. ولهم من جيّد الفواكه والثمار والأرطاب وسائر الأغذية».

وينوّه الشريف الادريسي المتوفّى سنة 535 هـ في كتابه "نزهة المشتاق في اختراق الآفاق" بخُبْز تونس فيقول: "ويعمل بها من الخبز وأنواعه مالا يمكنُ عمله في غيرها من البلاد» (ج1. ص 284)، ويقول عن تونس وانتاجها الفلاحي: "وهذه المدينة مُصَاقبةٌ لقرطاجنة المشهورة بالطّيبِ وكثرة الفواكه وحُسْنِ الجهة وجودَة الثّمار واتّساع الغلاّت. ومن غلاّتِها القطنُ والقَنَبُ والكرويّةُ والعُصْفُر».

إنّ الرّحالين إلى تونس العاصمة عبر العصور سطّروا في تآليفهم المظاهر الجمالية لتونس المدينة وما امتازت به بين المدن. فأبو عبيْد البكري يقول في كتابه "المسالك والممالك": "ومدينة تونس من أشرف مدائن إفريقية وأطيبها ثمرا وأنفسها فاكهة" ويقول: «ومدينة تونس دارُ علم وفقه،ولي منها قضاء إفريقية جماعة كبيرة".

ويذكرُ أبو اسحاق ابراهيمُ الأصْطخري المعروفُ بالكرخي المتوفّى في النّصف الأوّل من القرن الرابع الهجري أنّ "تونس مدينة كبيرة خصبة واسعة المياه والزروع"، ويذكرُ أنّ منها يقعُ السّفرُ إلى الأندلس، فكانت الميناء الذي "يعبر منه ولا يعبر من دونه".

ويمجّد الشريف الإدريسي المتوفّى سنة 535 هـ تونس فيقول عنها: "هي مدينة حسنةٌ، يحيطُ بها من جميع جهاتها فحوصٌ ومزارعُ للحنطة والشّعير وهي أكبر غلاّته» (ص 284، ج1). ويضيف :«وهي الآن في حين تأليفنا لهذا الكتاب معمورة، موفورة الخيرات، يلجأ إليها القريب والبعيد».

إنّ كلّ هذه الأقوال تصفُ تونس المدينة قبل أن تصبح عاصمة في العهد الحفصي حيث تكاثر الرّحالون إليها ووصفوها بأحسن الأوصاف، ونظموا فيها وفي ناسها الأشعار ممّا سنراه في الفصول القادمة.